الفصحى التي ندعو إليها(*)

أ٠د٠ محمد حسن عبد العزيز (*)

المقدمة :

قبل أن نُعرِّف بالفصحى المعاصرة التي ندعو إليها بما هو من صفاتها ننفي عنها ما ليس منها، مما يشيع بين نفر ممن يصفون أنفسهم بالمثقفين، وغيرهم من دعاة العامية، وكثير من الجهلة والعوام. يُشيع هؤلاء وهؤلاء أن الفصحى لغة مهجورة حُوشية الألفاظ وحشية المعنى، ويذكرون في ذلك كلمات مثل شَهْربة، وقَنَوَّر، وخَدَلَّجة، وبَلَنْدَح، وعَكَوَّك، وعَرَكْرَكة... وغير ذلك مما يستخرجونه من المعاجم القديمة ليُنفِّروا الناس عنها، وهذه الكلمات هجرها الاستعمال منذ خمسة عشر قرنًا.

ومن هذا ما يزعمه بعض هؤلاء من حكايات ونِكات يُشيعونها بين الناس وفي أجهزة الإعلام ازدراءً بالفصحى، وتهوينًا من شأنها، وسخرية بعلمائها ومؤسساتها. يقولون إن الشيخ حمزة فتح الله، وهو عالم جليل القدر وأديب كبير، استأجر حمَّارًا لينقله من بيته إلى الأزهر قائلًا: "آتني بأتان جَمَزَى"، أي سريعة. ومن هؤلاء أيضًا من يكذب على المجمع ويسخر من أعماله في الحفاظ على العربية ووفائها بحاجات الناس، يقولون إنه وضع للسندوتش عبارة "شاطر ومشطور وبينهما طازج"، وهذا بهتان عظيم، وسخف بيِّن؛ فقد وضع المجمع له كلمة "شطيرة"، وهي كلمة فصيحة ودالة وجديرة بالاستعمال.

(*) أُلقي هذا البحث في الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية عام ٢٠١٩م في وزارة الثقافة، وفي مجمع اللغة العربية.

(*) الأستاذ بقسم علم اللغة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

وأقول في تعريف الفصحى المعاصرة: "فصحى مُعْرَبة لا تجافي القواعد، مكتوبة غالبًا تُستخدم في التعليم، وفي العلم، وفي الأدب، وفي الصحافة؛ وهي اللغة الرسمية المشتركة في العالم العربي، وهي اللغة التي يعدها العرب لغتهم القومية ومظهر شخصيتهم ورمز استقلالهم؛ ومن ثم لها مكانة تفضُل أي شكل لغوي آخر في المجتمع، وهي شكل لغوي مُختار يتعلمه العربي تعلمًا، ويتفاوت مستعملوه في اتقانه تفاوتًا ظاهرًا؛ ومن ثم فلا أحد يكتسبها في بيئته أو يستعملها في شؤون الحياة العامة".

وأقول في وصفها في صورتها المعاصرة:

الفصحى المعاصرة التي صاغتها الأدباء والعلماء والصحافيون واللغويون منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين تتميز بعامة بصفات ثلاثة:

الأولى: أنها مرنة، ونعني بالمرونة توافرَ ذخيرة من الكلمات والعبارات تيسر لمن يستخدمها أن يعبر عما يريد بطرق متعددة.

والثانية: أنها موائمة لمتطلبات التعبير العصري، ونعني بالمواءمة دقةَ التعبير وجودة التوصيل وقوة التأثير.

الثالثة: أنها بسيطة نحويًّا ومعقدة في آنٍ، والبساطة والتعقيد يظهران في مواقف تجيء في خدمة أدائها لوظائفها وتيسير تعلمها ووفائها بحاجات الناس، ولا يتسع المقام لتفصيلٍ، فمن البساطة أنها تخلصت من استعمال بعض الأدوات الشائعة في الفصحى التراثية وأهملت بعض استعمالاتها، تخلصت من (إنْ) النافية، وأهملت التراكيب التي ترد فيها فاء السببية وواو المعية و(أو)، وهي مما يذكره النحاة من نواصب الفعل المضارع.

فمن حيث المفردات غَنِي معجمها غِنًى ظاهرًا بالاشتقاق من جذورها المسجلة في المعجمات القديمة، وبالمدلولات الجديدة التي أضيفت إلى ألفاظها الشائعة في الاستعمال، وبطرق أخرى كالتعريب والنحت.

وأوضح مثل على ذلك توسعها في التعدية بالتضعيف من جذور لم يسبق الاشتقاق منها، أو سبق الاشتقاق منها ولكن بمعانٍ أخرى غير المعنى المحدث؛ من ذلك مثلًا: حدَّد، وسيَّس، وخَدَّر، وصوَّت...إلخ، وخصخص، وعورب، وحَوكم، وعلمن، وعملن... واستعرض، واستعوض، واستهدف، وفوْسَق، ومَوضَع...إلخ.

كما توسعت العربية – بفضل مبدعيها من الأدباء والعلماء والصحافيين – في ترجمة عبارات من لغات أجنبية بمعانيها في لغتها، وبألفاظ عربية وتراكيب لا تجافي القواعد، كقولهم: نرفع القبعة لفلان، وتحريك الأسعار، وتجميد الأرصدة، وتثمين المواقف، وحقيبة وزارية...إلخ.

أما تصرفها في إلحاق مدلولات جديدة بمدلولات قديمة، وهو ما يعرف بالنقل أو المجاز، فكأنه شمل ألفاظ العربية المعاصرة جميعًا، فما تجد لفظًا مما يشيع هذه الأيام إلا وهو جديد في معناه وله مع ذلك آصرة من الفصحى التراثية.

وتعقيدها يتضح في مجال العمل، فقد تنوع استخدامها تنوعًا مثيرًا من حيث التركيب تقديمًا أو تأخيرًا، فصلًا أو وصلًا، إيجازًا أو إطنابًا. وفي تقديري أن الترجمة من اللغات الأجنبية دفعت المترجمين دفعًا إلى أن يبدعوا تراكيب لم تكن معروفة أو شائعة من قبل، وبهذه التراكيب المبتدعة أصبحت الفصحى المعاصرة ذات مشخصات واضحة، وأصبحت أكثر مرونة ومواءمة.

وأوضح مثل لذلك ما نراه من نوع التراكيب النحوية الدالة على الزمن، والتي أصبحت بفضل هؤلاء المترجمين مكافئة لتلك اللغات. انظر مثلًا قولنا: فَعَل وقد فَعَل، وكان قد فَعَل، وقد كان فعل، وكان يفعل، وكان وما زال يفعل، ولم ولن يفعل، ولا ولن يفعل، وكان وما زال وسيظل يفعل.

ومن يتفحص الجمل المركبة الشائعة في الفصحى الحديثة الدالة على الزمن الاقتراني بين الجمل يحس أنها صيغت على هذا النحو؛ استجابة لأمثالها في الإنجليزية بخاصة. تفحَّص معي كيف تستخدم عندما ولما وحينما وريثما وبينما وما دام وكلما.

وفي ظروف نشأتها واستمرارها أقول:

صحا العرب من نومهم الطويل عبر قرون ليكتشفوا أنهم متخلفون بالقياس إلى أوروبا في الفترة المعاصرة لهم، أو بالقياس إلى المجتمع الإسلامي في عصره الزاهر. لقد واجهوا حضارة وافدة غالبة تختلف عن حضارتهم في فكرها وفي مظاهر حياتها. لقد تبين لهم أنه ينقصهم الكثير لكي يواجهوا هذه الحضارة. لقد كان عليهم أن ينشئوا مجتمعًا جديدًا منظمًا، وأن يتخذوا كل الوسائل التي تكفل لهم ذلك.

وقد بُذلت جهود كبيرة لتقبل الحضارة الغربية والانتفاع بثمارها، وقد وضعهم هذا الموقف أمام مشكلة هوية مجتمعاتهم. وبعبارة موجزة: ماذا يأخذون من الغرب، وماذا يدعون، وماذا يحتفظون به من ثقافتهم، وماذا يتركون. وما تزال هذه المشكلة قائمة حتى اليوم، وإن كانت أشد قوة، بل قسوة.

ظل المجتمع العربي في أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين يحدد هويته من منطلقات عربية إسلامية، وكان التيار الأعظم تأثيرًا

ينحو إلى تجديد الفكر العربي والإسلامي والتخلص من عوامل التخلف، واستعادة قوة الإسلام ومجد العربية.

وفي مجال اللغة كان العرب يتطلعون إلى استرجاع مصادر ثقافتهم العربية، وكانت العربية الفصحى جوهر هذه الثقافة. إن إعجاب العرب الشديد بلغتهم وحرصهم عليها لا يقلان عن إعجابهم بدينهم وتمسكهم به؛ فالإسلام هو الذي حمل العربية إلى كل مكان وصل إليه العرب، والعربية هي لغة القرآن الكريم ولغة الثقافة الإسلامية في كل الأقطار الإسلامية، بل كانت لغةً عالمية لعدة قرون. وقد كان المفكرون الذين دعوا إلى تجديد الفكر الإسلامي هم ممن دعا أيضًا إلى تجديد العربية وإغنائها لتكون وافية بمطالب العصر.

ومن هنا نشيد بالمفكرين العظام: رفاعة الطهطاوي، وعلى مبارك، والشيخ محمد عبده، والمرصفي، وحمزة فتح الله، وأحمد لطفي السيد، وخير الدين التونسي، وأحمد بن فارس الشدياق، وغيرهم ممن دعوا إلى إحياء هوية المجتمع العربي الإسلامي بعامة. ونشيد كذلك بالأدباء العظام الذين كتبوا وشعروا بالفصحى وجعلوها لغة أدبية راقية: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وعمر أبو ريشة، والرصافي، وميخائيل نعيمة، وجُبران، ونازك الملائكة، وطه حسين، وعباس العقاد، وهيكل، وغيرهم. وشهد العالم عُرس العربية بتتويج نجيب محفوظ أعظم جائزة عالمية في الأدب، جائزة نوبل، وإنه هو الذي طوع العربية لتحكي حياة الشعب المصري بكل طبقاته في عربية شاعرية سلسة، من غير لحن أو خطأ، وأكد أن اللغة العربية تواكب في خصائصها اللغات الأجنبية الكبرى. وكان دور توفيق الحكيم عظيمًا حين طوَّع العربية

لفنون المسرح الوافد على أدبنا من الغرب، بل حاول أن يقرّب بين العامية والفصحى في بعض مسرحياته.

أما الصحافة فقد كان لها أعظم دور في نشأة الفصحى واستمرارها وتطورها إلى يومنا هذا، وقد كان المفكرون الأوائل، الطهطاوي، وعلى مبارك، والشيخ محمد عبده، والشدياق، واليازجي، من أركان نهضة الصحافة العربية، وإن كثيرًا ممن أشرنا إليهم من الأدباء اشتغلوا بالصحافة، وكانوا من عمدها. وأضيف إلى هؤلاء - للتمثيل فحسب - عبد الله النديم صاحب ***التنكيت والتبكيت***، و***الأستاذ***، والشيخ علي يوسف صاحب ***المؤيد***، ومصطفى كامل صاحب ***اللواء***، وأحمد لطفي السيد صاحب **الجريدة**، وأضيف إلى ما سبق الصحف الأدبية، كالرسالة والثقافة والآداب...إلخ.

وحدة الثقافة واللغة بين العرب:

من فضول القول أن نقول بذلك، ونكتفي بتأكيد هذه الحقيقة بأمثلة لهذه العُروة الوثقى من بداية عصر النهضة إلى اليوم، وأوجز القول في هذه الفقرة بالحديث عن بعض أعلام الأدب الذين كان لهم فضل القيام بالدعوة إلى الفصحى والكتابة بها في التاريخ المعاصر.

طوفت في البلاد العربية معارًا إلى بعض البلاد، أو زائرًا للعمل ببعضها الآخر، أو مشاركًا في مؤتمرات عديدة عن اللغة العربية، وكنت حريصًا في هذه الأثناء على قراءة صحفها، وإلى الاستماع إلى البرامج التي تبثها أجهزة الإعلام فيها: المسموعة والمرئية.

وقد تبين لي أن التعريف الذي وضعته للفصحى المعاصرة تتحقق عناصره جميعًا في كل هذه البلاد، وتبين لي أيضًا أن هذه الفصحى وظروف نشأتها وتطورها وتعاظم دورها ينطبق - تقريبًا - على العرب

جميعًا، ولم أجد فروقًا كبيرة في خصائص هذه الفصحى، وأنها تتشابه في بنيتها التركيبية، وفي القدر الأعظم من مفرداتها، وهو القدر المشترك المستعمل بينها، والذي يوفر التفاهم بها. وإن كان ثمة فروق فمرجعها إلى أن كلمةً ما تُستخدم في قُطر أو أكثر؛ على حين يُستخدم مرادف آخر في قُطر أو أقطار أخرى. وكثير مما يجِدُّ في الاستعمال في قُطر يجدُ طريقه إلى الأقطار الأخرى، ولا مشاحة في ذلك فالتغير الدلالي للمفردات واقع مستمر، وهو أكثر التغيرات اللغوية وقوعًا، ولا ضرر كبيرًا منه.

إن من يقرأ الصحف في المغرب أو السودان أو سوريا أو العراق.. لا يجد مشقة كبيرة في قراءتها وفهمها، وكذلك الحال عند ما تبثه أجهزة الإعلام الأخرى المسموعة أو المرئية.

ولعل هذا ما بعثني أن أقترح على المجمع إنشاء (مرصد لألفاظ الحضارة المعاصرة المترادفة بين البلاد العربية)، وقد وافق مجلس المجمع على هذا المقترح، وتقوم الآن لجنة الألفاظ والأساليب بالعمل فيه، وقد أنجزت اللجنة نموذجًا له في مجال (ألفاظ الحكم والإدارة).

هذا، وما يكتب بالفصحى في الصحافة يُكتب مثيله أيضًا في مجالات أخرى في الآداب والعلوم.

لقد عكفت منذ سنين ليست طويلة على قراءة أعمال أدبية معاصرة في مجال الرواية أو القصة القصيرة لكُتَّاب غير مصريين، ليكون ذلك دليلًا على شيوعها في كل بلاد العرب، ولا أخفي أن قراءتي لهذه الأعمال كانت قراءة لغوية لا فنية. وأشهد بأنها أمثال يقتدى بها في هذا المجال، وفضلًا عن كونها متعة عالية القيمة؛ عكفت على أعمال الطيب صالح، وأعمال إبراهيم

الكوني، وأعمال عبد الرحمن منيف، وبخاصة: مجموعة ***مدن الملح***، ومجموعة ***شرق المتوسط***.

وقد زرت المغرب مرتين التقيت فيها ببعض أدبائها ولغوييها، وكنت أسمع منهم عَتْبَهم على الكُتَّاب المشارقة أنهم لا يقرؤون لهم، وفي هاتين الزيارتين تعرفت على الصديق اللغوي والروائي عبد الغني أبو العزم، وأهداني بعض أعماله، وقد عكفت عليها باحثًا ومستمتعًا، وبخاصة سيرته الذاتية في مجلدين: ***الضريح والضريح الآخر***. لقد اكتشفت بعد قراءتها جهلي بحياة المغاربة، وبخاصة في مراكش وفاس، وأنها لا تختلف كثيرًا عن الحياة في مصر واديها وصعيدها، والسيرة مكتوبة بفصحى جميلة متدفقة يستخدمها في الحكي أو السَّرد، ويستخدم اللهجة المراكشية في الحوار، وأشهد أنني وجدت صعوبة في فهم هذه اللهجة لأول بادرة، ثم أعدت قراءتها غير مرة فتمكنت منها وأصبحت يسيرة صالحة للدراسة، وقريبة المضمون.

ولأن الشِّعر له لغته المميَّزَة، فمن الضروري أن يكون له عند درسه مناهج خاصة، فلم أضعه للتحليل اللغوي في خصائصه هذه، ومع هذا أدركت أن له دورًا كبيرًا في التأثير على اللغة الفصحى بعامة، وأذكر فحسب هنا: أعمال صلاح عبد الصبور، وحجازي، والشابي، والسياب، ومحمود درويش...إلخ

الواقع والمستقبل:

اللغة تحيا بحياة أهلها، وتعيش بجريانها على ألسنتهم وأقلامهم، وتموت إذا مات أصحابها أو هجروها، ومن نظرة متفائلة أقول: لا ينبغي أن يصرفنا واقع اللغة عما تتعرض له من مشكلات تكاد تعصف بها، أنَّ لنا دورًا كبيرًا في إصلاحها وتطويرها.

من مظاهر هذا الواقع:

- تعاظم تأثير العولمة على المؤسسات الحكومية ومؤسسات المجتمع والمؤسسات الخدمية، وإيثارها اللغات الأجنبية على العربية، كالبنوك والفنادق والعمل بالمطارات...إلخ.
- سياسة الانفتاح وما واكبها من تغيرات اجتماعية، فظهرت أجيال من الشباب مُستلَبة الهوية نافرة من اللغة العربية.
- وما انبنى على ما سبق من تسلل ثم سيطرة المدارس والجامعات الأجنبية على جزء كبير من مؤسساتنا التعليمية.
- ولقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى تدني الإحساس بالانتماء إلى اللغة الفصحى وثقافتها العربية وضعف الثقة بهما، وهما عماد الهوية، بل قُل معي بلا حرج السخرية منها والهزؤ بها.
- أما الحديث عن المستقبل فربما يكون له وقت آخر في قابل الأيام.

* * *